



تجديد في مفهوم العروبة

بقلم اسماعيل المالحم

احدهما الآخر ولا يناقضه او هما في مرحلة العربية المعاصرة وجهان لقضية واحدة هي قضية الثورة العربية . الا أن عدم تجديد البحث الواعي والجاد في كليهما وتطبيقه على ارضية الواقع العربي المعاصر هو الذي يخلق هذه التآزمات وينميها ، ويضع الواقف في موقع احدهما متهما من الموقع الآخر ، والانسان العربي ازاء ذلك امام احدي تهمتين :

- ١ - شعوبي عدو للعروبة والقومية حاقد عليهما .
- ٢ - شوفيني عدو للاشتراكية والانسانية متعاون مع اعدائهما .

وان ادعى احد انه قد استطاع ان يزوج بين المفهوم القومي والمفهوم الاشتراكي او العكس فهو في لحظات الحوار التي لم تكن بين التيارين ابدا غير لحظات عصبية حادة يسقط التزاوج فورا وتجري عملية الطلاق الحتمي بينهما .

وان نظرة متفحصة جادة لاسباب وقوع كل منهما في الخطأ وابتعاده عن جادة الصواب تكشف استفراقه في الجزئيات التي تفقد ارتباطها بالكل الذي يتضمنها او يشملها ، ومرد ذلك كامن في تغفل روح الانتهاز وسيطرة شكل من اشكال السطحية في البحث والمناقشة والتفكير .

ان طبقات جديدة ظهرت الى المسرح السياسي منذ منتصف الخمسينات كانت قبل ذلك مقهورة منظوية على ذاتها خائفة مترددة ، دفعة واحدة رأت النور ولعدم توافر اسباب النضج اعتنقت افكارا فجة جمدها في قولها وظنت انها باعتناقها هذه الافكار قد قامت بقفزة نوعية الى الامام والاعلى ، ناسية ان عنصر الثقف وحده لا يكفي فهو واحد من عناصر الابداع الذي عرفه علماء النفس بأنه « كنه التقدم البشري وشرطه الضروري » .

لكل هذه العوامل وعوامل أخرى غيرها لم يتيسر للثقافة العاجلة المتسرعة اية فرصة كسي تتخمر وتتفجر

ان لتجديد البحث في العروبة (الفكرة والوجود) اكثر من مبرر في هذه الفترة بالذات . ذلك أن جدلا يتجدد هذه الايام بين مفهومين يساء الى تضمن كل منهما على صورة تثير التقزز والاشمئزاز في كثير من الاحيان :

١ - مفهوم قومي لم تجده الابحاث ولم تتناوله الاقلام بصورة كافية ومتناسبة مع خطورته ، بل انه قد غدا مجرد عبارات يتشدد بها الخطباء وكلمات يتعامل بها السياسيون في المؤتمرات والمحافل الدولية . وقد جمد هذا المفهوم او اريد له ذلك عند كتابات ساطع الحصري وميشيل عفلق وعزة دروزة وزكي الارسوزي كما تجمد البحث في طبائع العمران عند العرب بعد ابن خلدون . ومن نقطة الضعف هذه اتخذ اصحاب المفهوم الآخر هدفا يرمون اليه بسهامهم .

٢ - مفهوم اشتراكي اممي اتجه نحو مؤلفات ماركس ولينين واتخذ من دولة ثورة اكتوبر قبلة يصلي في محرابها يتلو تعاليمها ويحفظها حتى غدا ذلك في سلوكه عادة تتصف ككل عادة بالالية .

ونسى اصحاب هذا المفهوم ان الماركسية نظرية موضوعية متجددة متطورة نحو «الانسان والعلم والمجتمع» وقفزوا فوق ظروف البيئة سابحين في ملكوت آخر حافظين الفاظا يتداولونها ويرمون بها تهما ظالمة نحو اصحاب المفهوم الاول ناعتين اياهم بالشوفينية والفاشية ، مدعين بمرحلية القومية الى ما هنالك من عبارات يستظفرونها ويكررونها دون ان يضعوها في اغلب الاحيان في المكان الذي تستحقه .

بين التيارين يعيش الضمير العربي ازمته المعاصرة المتجددة . وان هذه الازمة في تقديري تعود الى عدم وضوح الاولويات التي يركز اليها كل من المفهومين في ذهن اصحابه .

ذلك ان كلا من المفهومين لو شئنا ان نصحو يكمل

ابداعا يسهم في الارتفاع نحو الوعي الذي يرتفع بأصحابه الى المستوى المطلوب في هذه المرحلة الدقيقة والخطيرة معا من حياة الأمة العربية ومن حياة الانسانية ايضا .
ومن جديد أرى ان تجديد العودة الى العروبة ، نبعا اصيلا لكل تفكير اجتماعي او انساني ، ضرورة ملحة وهامة . وليبتدىء هذا التجديد في الاولويات التي تقوم عليها فكرة العروبة :

١ - تعريف القومية : هل من الممكن تعريف القومية تعريفا عاما شاملا يشبهه تعريف الضوء او الاكسدة او تعريف أية ظاهرة فيزيائية او كيميائية اخرى مثلا ؟
لا شك ان ظاهرة القومية ظاهرة انسانية تتصف بالكلية ، لكن هل يكفي هذا كي نبرر تعريفها تعريفا كليا لا يفسح المجال لتعريفات خاصة للقوميات التي يشملها مفهوم القومية ؟ ان كليات الظاهرة القومية وعموميتها ، شأنها في ذلك شأن أية ظاهرة انسانية ، لا يمكن ان يصدق عليها ما يصدق على الظواهر الطبيعية ، فمن البديهيات المنطقية ان لكل علم طبيعته فكما لا نستطيع ان نعمم مفهوم الاسره في بريطانيا عليه في الصين او تركيا وكما أننا نستطيع ان نميز في تطور الاسرة بين اسرة امريسية واخرى ابريسية ، كذلك في القومية ، فما يصح تعريفا للقومية العربية لن يكون هو ما قاله رينان عن القومية ، لان تصورات كانت وليدة ظروف معينة محددة بشروط زمانية ومكانية .

قد يعتبر البعض التعريف اللينيني للقومية تعريفا تقدما يتصف بكل ابعاد التعريف العلمية . لكن هذا التعريف ايضا ليس كافيا ، وان كان من الضروري الاعتماد عليه في أية محاولة للتعريف الخاص بالقومية العربية ، على الاقل من قبيل ان ما يصح في العام لا يمكن قبوله كما هو في الخاص . ومن وجهة النظر هذه اجاد ان الباحثين والدارسين العرب ، ماركسيين كانوا ام قوميين ، مدعوون للتفصيل في هذا التعريف . وهنا يجب التنويه بأنه لا تكفي الابحاث الوثائقية في هذا المضمار بل يجب ان تكون مثل هذه الابحاث نقطة البداية بالنسبة لابحاث جديدة تستغرق حوارا كافيا للوصول الى قانون اجتماعي في هذا الشأن ينطبق على الواقع العربي .

٢ - القومية ودورها في عملية قيام دولة الوحدة :
او بمعنى آخر الانتقال بالقومية من حالة الوجود بالقوة الى مرحلة الوجود بالفعل الذي لا يمكن ان يوجد الا في وجود دولة الوحدة .

وكان في ما يثار حول بعض الانماط من التجمع العربي كالثمة مثلا وما شابهها ، لم تعد الوحدة ، فكرة ، تخطر على ذهن أحد فكيف بالوحدة وجودا ، فكان الجميع يعملون بوحى ما نشره الاستاذ عبد اللطيف شرارة عام ١٩٥٦ في عدد الآداب الثالث : « ان قضية الوحدة العربية او الاتحاد العربي ، مشكلة سياسية في الدرجة الاولى ولا سبيل الى الخوض فيها نظريا . . . وان البحث

فيها سابق لاوانه في اوضاعنا السياسية العامة » .
وللحقيمه والتاريخ يجب ان نشير الى تلك الندوات المحدودة التي أجريت في بل من دمشق وحلب وبيروت والتي نشرت بصورها في مجلتي « المعرفه » السورية و « دراسات عربية » البيروتية . والمساهمة القيمة التي تجلت في عدد الآداب الممتاز بعيد خرب ١٩٦٧ .

لكن هذه المساهمات جميعا ، على قلتها ، كانت رد فعل مباشر على هزيمة حزيران ، وبعد اشهر قليلة من الهزيمة صمت كل شيء وكان دور الوحدة في التخلص من عار الهزيمة ونتائجها قد انتهى . قد يكون هنالك بعض المبررات لهذا الصمت المطبق والمخيف معا ، كثقل الهزيمة وتفجر العمل الفدائي والحياء من التكلم عن العروبة في عصر رأى البعض وامن الكثير معه بأنه عصر الماركسية التي فهمها هذا النفر تقيضا للعروبة والقومية حتى هتف بعضهم في مسيرة شعبية لتدعيم العمل الفدائي : « يا فدائي دوس دوس على دعاة القومية » . قد يكون للمبرر الاول والثاني (ثقل الهزيمة وتفجر العمل الفدائي) بعض القبول في تفسير الصمت على التكلم في الوحدة والقومية ، لان الهزيمة التي أصابت العروبة والعمل الفدائي كان أمل جراحها المخضبة بأن لا يشفى الدم الا بالدم . اما المبرر الثالث : التستر بالماركسية للصمت على القومية ودولتها ؟

وهنا يحضر الى ساحة الشعور استفتاء عن الادباء الشباب في ج . ع . م أجرته مجلة الطليعة القاهرية . لقد كان هذا الاستفتاء سواء في صيغة الاسئلة او في الشكل الذي ظهرت فيه الاجوبة اعمى اصم أبكم بالنسبة للقومية ودولة الوحدة كأنهما لا يعنيان الادب ولا يحضران الى ذهن الشباب الادباء .

هكذا تفرق العروبة فكرة - ينبغي ان تبقى حاضرة متجددة في وعينا كي تغدو وجودا تقدما انسانيا - في بحار الصمت . واذا ذكرت قبل قليل ثلاث ظاهرات تسهم معا او كل على حدة في ملء ساحات شعور كتابنا وسياسيينا ، أجد من الضرورة ان اضع هذه الظاهرات في امكنتها الطبيعية داخل فكرة العروبة قدر الامكان لاننا بتنا نخشى على انفسنا من اولئك الذين يناقشون الامور على طريقة : « لا تقربوا الصلاة » .

ان ثقل الهزيمة ومرارتها كان من الواجب ان يصهرا في الوحدة فكرة وجودا لان الوحدة كقيلة بازالة هذا الثقل بأنها تحمل القوة التي ان تفجرت وجودا حقيقيا تمحو الهزيمة ذاتها من جذورها الاولى . اما الصمت عن الوحدة ودغدغة العواطف بمؤتمرات رسمية او شبه رسمية فاني لم أجد فيه لحظة سوى انه يزيد الطين بلة .
واما تفجر العمل الفدائي وفرض نفسه ظاهرة صحية في المجال العربي فانه كي لا يتسرب الى جسده الفرض النامي جرثوم المرض الذي يجعل ساحات عملنا السياسي والاجتماعي موبوءا ، فانه كي يتحصن من ذلك يجب ان

يكون دما يرفد الوحدة ويعظم قوتها لانها هي قلعتها الحصينة وبدونها نراه في كثير من الاحيان يضع بعض مجهوداته في ساحات ليست هي ساحات الغدء المطلوب .

اما ما يجده البعض تعويضا عن التفكير بالعروبة والقومية ، وا قصد بذلك « الماركسية » ، فهذا يعيدنا الى ما بدأنا به . كان من الممكن الا يكون ذلك تعويضا بل عضدا للعروبة في محنتها وتطلعاتها . اذ ان تقديمية القومية في البلدان المتخلفة غير مختلف عليها وان التخوف من الشوفينية ان تجد طريقها من خلال القومية لا مبرر له طالما ان الوجود القومي بحد ذاته لم يقم من جهة ، وان قام فهو لن يتفرغ لكيل ضربات التعصب للغير لانه سيكون منشغلا في رد الضربات عن راسه . وارى انه لا لزوم للتذكير : بان اهمية المنطقة العربية من الوجهتين الحربية والاقتصادية تجعل قيام وحدة فيها هدف الطامعين والمستغلين من الخارج لتخريبها وتجزئتها . وان الوجود القومي العربي لم يكن لا اناسيا عندما كانت شريعة القاب هي السائدة في القرون الوسطى فكيف وقد غدت افكار العدالة والسلام على كل شفة ولسان ؟ .

ثم ان الماركسية ، وهي فهم علمي للواقع من اجل تغييره وقلب العلاقات القديمة فيه ، لا يمكن ان كانت مخصصة لتسميتها ان تتجاهل الواقع العربي المجزأ ولا يمكن ان تفر تكريس هذه التجزئة ، لان ذلك لن يكون الا عند من يتبنى فلسفات غيبية ميتافيزيقية تستمد ايدولوجياتها من فوق الواقع لا منه فيشطح بها الخيال نحو فرعونية او فينيقية او نحو انسانية بدون جذور .

٣ - القومية ظاهرة انسانية حية لها صفات الكائن الحي في الاستمرار والتجدد .
ولتوضيح ذلك نذكر بأولويات في البحث الاجتماعي وفي تشابك الظواهر الاجتماعية وجدليتها .

فالقومية كظاهرة انسانية هي من وجهة نظر سوسيولوجية تتصف بال تكرار والاستمرار . الا ان عدم القدرة على التعميم دون الانتباه الى الخاص داخل العام في مجال العلوم الانسانية وحتى في العلوم الطبيعية يجب ان يبقى في حيز الملاحظة .

فكما ان الدول الحاضرة لم تولد جميعا في وقت واحد وليس لها جميعا نفس العمر الزمني ، كذلك القوميات الحاضرة لم تولد (فكرة او وجودا) في نفس الفترة ولن يكون لها نفس العمر الزمني .

وهذا يمكن استخلاصه عند الافراد داخل التنوع الواحد ايضا . قد يعترض البعض ان ليس ثمة فرد خالد . واقول لا يخلد الفرد لكن من وجهة نظر علمية فالنوع باق او بصورة اكثر موضوعية : بعض الانواع تبقى والآخر يفنى . وكذلك القوميات او الامم التي هي الواقع المادي للقوميات .

لذا يكون البحث في الخاص ، أي في القومية العربية كظاهرة حية متجددة ذات ابعاد تاريخية ، أمرا ضروريا تقتضيه ظروف العصر السياسية والاقتصادية والثقافية .
٤ - القومية والاممية : هل الظاهرة القومية ظاهرة آنية أي انها مرحلة كالطوطمية او القبلية مثلا ؟ لقد اجابت الفقرة الثالثة من هذه المحاولة على ذلك من بعض الوجوه . ان النظر للقومية بأنها ظاهرة مرحلية ستتجاوزها البشرية الى مرحلة ارقى منها لا قومية (اممية) كان نتيجة استقرار غير حقيقي لا يبرر فيه الانتقال من الواقع الى القانون لان وقائعه كانت مأخوذة على شكل عينة لا تملك صفات التمثيل تماما للظاهرة القومية . ان هذه الفكرة التي تولدت في اوربا قد تصدق على قومياتها ولا يصح ان نطلقها على قوميات أخرى ، لذا فلا يمكن تعميمها على القومية العربية بصورة خاصة .

اسماعيل المحم

السويداء (سورية)

الاشتراكية والمرأة

ترجمة وتقديم

مؤرج طرابيشي

٤٠٠ ق ل

دار الآداب

كيف تواجه الاشتراكية ، بمختلف أشكالها ، مشكلات المرأة ، على اختلاف صورها ؟
هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب . وقد تناول موضوعاته عدد من المفكرين والكتاب الاجتماعيين الذين اهتموا بوضع المرأة بصورة عامة ، فكتب ريزانوف عن « الشيوعية والزواج » ولينين عن « الماسة الجنسية » وبابلو عن « الفرويدية والماركسية » وتومسيك عن « مشكلات شرط المرأة الاجتماعي » وفيرا بلشاي عن « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » وسيمون دوبوفوار عن « مسيرة المرأة الصينية » وسواهم . كما ان هناك فصلا هاما يرد رأي لينين في الحب الحر .
كتاب عظيم الاهمية يبين ما حققته المرأة المعاصرة من تطور في ظل الاشتراكية .